بيروت تحتفي بمئويته رئي

المناضل الطبقي آمن بمسؤولية الأدب وعارض تقسيم فلسطين

رئيف خوري في الأربعينيات (الصور من ارشيف عائلته الذي فتحته مشكورة لـ «الأخبار»)

حسين بن حمزة

جمع رئيف خوري (1913 ـ 1967) بين النضال السياسي والفكر التنويري والكتابة النقدية. الكتابة نفسها كانت جزءاً من النضال والتنوير اللذين كانا سبباً للكتابة، وكانت الكتابة وسيلةً له. لم تكن ممارسة تعبيرية وأدبية صافية أو سابقة للأفكار والقضايا التي دافع عنها. ليس المقصود هنا أن تكون الكتابة فناً مستقلاً أو ترفاً أدبياً، لكنها تفقد شيئاً من الفن والاستقلالية و«الترف» حين تكون وعاءً لموضوعاتها، ولا يختلف ذلك كثيراً إذا كانت هذه الموضوعات سياسية ونضالية أم كانت رومانسيات. ولذلك يصعب أخذ تجربته إلى زمن أحدث، وقراءته بمعايير أحدث أيضاً. كان خوري مشغولاً بالتغيير الاجتماعي والسياسي وإيقاظ الوعي الوطني والقومي. قاده ذلك إلى المشاركة الحقيقية في تحقيق هذه الطموحات، فشارك في ثورة 1936 في فلسطين، ونشر في السنة ذاتها كتابه «جهاد فلسطين» بتوقيع «الفتى العربي». كان ركناً أساسياً في «عصبة مكافحة النازية والفاشستية»، وأصدر جريدة «الدفاع» في دمشق لتكون لسان حال العصبة لفترة قصيرة، ثم أسس مع أنطون تابت وعمر فاخوري مجلة «الطريق» (1941)، وواصل فيها ما كان ينشره من مقالات في السياسة والنقد الأدبي والتراث والفلسفة. ولعل عمله الأساسي أستاذاً للغة العربية، وتنقّله بين مناطق عدة في لبنان وسوريا وفلسطين، ساهما في ترسيخ علاقته مع أحوال الناس والواقع في تلك الحقبة التي شهدت حرباً عالمية ثانية، وانتداباً استعمارياً، ونكبةً فلسطينية، واستقلالات وطنية، وصراعات سياسية وحزبية وفكرية. رئيف خوري هو ابن تلك الحقبة التي ضاعت فيها فلسطين وكان شاهداً على النكسة قبل عام من رحيله عام 1968. كان مثالاً ساطعاً على مزج القول بالفعل، والكلمة المكتوبة بالكفاح على الأرض. مزيجٌ تسرّب إلى أغلب كتاباته سواء كانت سياسية أو فكرية أو تراثية. تعدُّدُ الاهتمامات والأجناس الكتابية كان يجد وحدةً ما في حماسة صاحب «معالم الوعي القومي»، وفي ضبطه لهذا التعدّد في سياق تنويري ونهضوي وماركسي، مِمّا يجعل قوة نتاجه موجودة في مجموع هذا النتاج وليس في كل كتاب منها على حدة. كأن خوري هو حزمة من الأفكار التنويرية والممارسات النضالية، أو كأنه مختزلٌ في اسمه وزمنه وزمن أفكاره أيضاً. يليق بصاحب «الفكر العربي الحديث» (1943) أن نقول إنه كان موسوعياً في ثقافته وكتاباته، أنزل تلك الكتابات إلى الجماهير والناس، وقف على المنابر يخطب فيها بالأفكار والقناعات ذاتها، وكان لبنانياً وسورياً وفلسطينياً، وواحداً من «رجالات» تلك الحقبة حين كانت هذه الصفة تُقال عن أمثاله فقط ممن نذروا أنفسهم لقضايا شعوبهم ومجتمعاتهم. المناضل الطليعي الذي ولد في نابيه، وتخرّج في الجامعة الأميركية في بيروت (1932)، عمل مدرّساً في طرطوس والقدس، وأصدر باكورته «امرؤ القيس، نقد وتحليل» (1934). الأدب والتراث ظلا حاضرين في مؤلفاته التي وصلت إلى العشرين، لكن سيرته الكفاحية ومواقفه الفكرية طغت على اختصاصه الأدبي، بل دفعته إلى تحليلات غير دقيقة أحياناً كما في مقارنته لمرثية مالك ابن الريب الشهيرة مع قصيدة للشاعر الروسي الكسندر تفاردوفسكي عن موت جندي سوفياتي، منحازاً إلى معاني المقاومة والنضال لدى الثاني، ومنتقداً «فردية» ابن الريب وآلامه الشخصية. مثالٌ يمكنه أن يدلنا إلى مواقف أخرى من النوع نفسه، لكنها تفاصيل صغيرة في مسيرة غلب عليها النضال الفكري والثوري، حيث كان النقد الأدبي عنده «لحظةً من لحظات التنوير الشامل» بحسب تعبير الناقد فيصل دراج.

هكذا، تبدو أبحاثه التراثية والأدبية، عن ابن المقفع وعمر بن أبي ربيعة مثلاً، مصابةً بعدوى فكرة مسؤولية الأدب والكلمة في معركة الواقع والانحياز الطبقي. الفكرة التي راجت نقدياً تحت اسم «البطل الإيجابي»، ودارت في سبيلها معارك ثقافية لا تزال ممكنة حتى اليوم. هل الأدب مسألة فنية أم مسؤولية اجتماعية وثقافية؟ هذا هو السؤال الجوهري الذي ظلت نتاجات رئيف خوري محكومة به. لم يُخفِ المتنور الكبير انحيازاته وقناعاته. كان صادقاً وشجاعاً مع أفكاره إلى درجة أنه عوقب من قبل الحزب الشيوعي اللبناني (رغم أنه لم يكن عضواً رسمياً فيه)، ومُنع من الكتابة في مجلته «الطريق»، وتم التشهير به على صفحاتها لأنه وقف ضد قرار تقسيم فلسطين الذي وافق عليه الاتحاد السوفياتي في مجلس الأمن وقتذاك. موقفٌ من مواقف عدة يمكن وضعها اليوم ـ وهنا برسم مثقفي المقاولات في منابر زمننا الراهن.

في مئوية رئيف خوري، يقيم «المجلس الثقافي الجنوبي» و«الحركة الثقافية ـ انطلياس» مؤتمراً من العاشرة حتى السادسة من مساء اليوم في «قصر الأونيسكو» بمشاركة: حبيب صادق، انطوان سيف، يمنى العيد، فيصل دراج، ربيعة أبي فاضل، سماح ادريس، نصري الصايغ، عصام خليفة، ملكة رئيف خوري...

مثقفاً وطنياً وقومياً عربياً

سماح إدريس*

مارس رئيف نضاله الوطني ـ القومي العربي على جبهات كثيرة.

1 ـ جبهة النضال السياسي المباشر: في عام 1935، انتقل إلى التدريس في فلسطين، فشارك في تنظيم المظاهرات التي سبقتْ ثورةَ 1936، وصاغ بالاشتراك مع آخرين مطالب «الإضراب الكبير» (وقف الهجرة اليهودية وبيع الأراضي، تجريد الصهاينة من الأسلحة...). ثم خطب في مدن فلسطينية ضد بريطانيا. عام 1938، مثّل الشباب العربي في «مؤتمر الشبيبة العالمي الثاني» في إحدى ضواحي نيويورك، فهاجم الانتداب البريطاني، ودافع عن الفلسطينيين. نتيجة لموقفه، منعه المندوب السامي البريطاني من دخول فلسطين، فعاد إلى بيروت. لكنّ الأوامر البريطانية لاحقته، فصدر قرار سنة 1940 بفصله من مدرسة «الآي. سي» التي كان يدرّس فيها.

2 ـ جبهة التأليف السياسي ـ الشعري من وحي فلسطين: ألّف كتابين: «جهاد فلسطين» (1936) حيث يفصّل وحشية الإنكليز ضد الشعب الفلسطيني، وينبّه العرب إلى خطر الكيان الصهيوني. «ثورة بيدبا» (1936)، وهي مسرحية شعرية تتخذ من قصة في «كليلة ودمنة» إطاراً لثورة يدعو إليها رئيف ضد الظلم والنزوح.

3 ـ جبهة العمل التربوي: صرف سنوات في تدريس الناشئة في لبنان، وطرطوس (1933) وفلسطين. غير أنّ البعد الوطني ـ القومي في عمله التربوي تجلّى في إعادة صياغته لصفحات من التراث العربي كي تكون في متناول الناشة، فتسهم في جعلها أكثر التصاقاً بالتاريخ العربي وبالمعاني الإنسانية فيه.

4 ـ جبهة النقد الأدبي: نشد «نقداً معبّراً حقّاً عن القومية العربية التحررية» (الأدب المسؤول، ص 174). لذا ركّز على النواحي الوطنية والقومية في النص الأدبي. الأدب «الصحيح»، برأيه، ينبغي أن يضم 4 عناصر: الجرأة على مجابهة الواقع، وفهم أسبابه، وتخطيط الطريق لتبديله بأحسن منه، والمضي في هذه الطريق (مجلة الطليعة، 6 و7، 1936). بعد الهبة الناصرية، أضاف إلى مستلزمات الأدب الصحيح عناصر «قومية» أهمّها: قلع الاستعمار من أي بلد عربي، محاربة التفريق والاستغلال الطائفي، وتحقيق السيادة الوطنية، وإقامة التعاون بين الدول العربية (مجلة «الآداب»، 5، 1957).

5 ـ جبهة النضال الفكري والتنظيري: أتاح وجوده الفاعل على الجبهات كافةً أن يطوّر مفهوماً متكاملاً للنضال الوطني ـ القومي. لكن بقيت لديه بوصلة توجّهه: بوصلة الخلاص من الصهيونية والاستعمار، وبناء مجتمع عربي حرّ وعادل وواحد.

> ماركسي شيوعي في تبنيه نظرة مادية ديالكتيكية إلى تطور التاريخ

هو فلسطيني الهوى بتأثير عوامل كثيرة، أهمها معايشته المباشرة للظلم البريطاني ـ الصهيوني في فلسطين أثناء وجوده فيها عام 1936. وهو ديمقراطي علماني مؤمن بحقوق الإنسان بسبب قراءاته الآداب العالمية وتأثّره بأفكار الثورة الفرنسية. وهو ماركسي شيوعي في تبنّيه نظرةً ماديةً ديالكتيكية إلى تطور التاريخ، وفي اعتباره أنّ ذروة حقوق الإنسان هي في إنهاء الملكية الخاصة في وسائل الإنتاج وأدواته ووضعها «ملكاً للشعب» (حقوق الإنسان، ص 12). وهو عاشق لعروبته، تراثاً وحضارة. كان يزداد تشبثاً بها كلما آنس خطراً استعمارياً عليها. وهو ذو نزعة استقلالية قوية بتأثير من إيمانه بحقّ الشعوب في تقرير مصيرها. كان يربط هذه المبادئ، بحيث يرفض أحدها إذا انعدمت الأخريات. في «حقوق الإنسان» (1938) آثر ديمقراطية الاتحاد السوفياتي على ديمقراطية «الدول البورجوازية» لأنّ هذه «لا تؤمّن الجانب الاقتصادي لممارسة حقوق هذه الديمقراطية». وهذا يعني أنّه ضد الديمقراطية ما لم ترتبط بالاشتراكية. لكن في عز تمجيده لـ «بلد لينين»، انتقد موافقة موسكو وبعض الأحزاب الشيوعية العربية على قرار تقسيم فلسطين عام 1947؛ وهذا يعني أنّه ضد الشيوعية إن تنكّرت لفلسطين. ودافع عن قبول تيتو معونة أميركية لإنعاش الاقتصاد اليوغوسلافي بعدما حرمها إيّاها ستالين؛ وهذا يعني أنّه مع القرار السيادي المستقل إذا اصطدم بمصالح دول أخرى ولو كانت «اشتراكية». وهو مؤمن بالقومية العربية شرط أن تكون ديمقراطية تحرّرية، تمييزاً لها من قومية «ذات اتجاه رجعي جامد ومتحجر» («الأدب المسؤول»، ص 175). هذا الموقف «الترابطي» جاء على مراحل. حين أصدر «الثورة الروسية: قصة مولد حضارة جديدة» (1948) دافع عن ديكتاتورية البروليتاريا بوصفها ديكتاتورية الشعب، وعن سلطة الحزب الشيوعي بوصفها سلطة الشعب. ولم يصل إلى الموقف الترابطي المتكامل إلا في مرحلة النهوض القومي العربي. وهذا ما عبّر عنه في مقال نشره في «الآداب» عام 1953، إذ أيّد الصداقة بين الشعوب العربية وبلد لينين شرط أن تكون «صداقة وطن مستقل لوطن مستقل، وشعب حر لشعب حر، وجماهير عاملة لجماهير عاملة... صداقة لا تعني تبعية منّا لأحد...أو مأموريّة [لأحد علينا]». وحين صمدت بورسعيد في وجه العدوان الثلاثي عام 1956، اعتبر ذلك «برهاناً على أنّ الأمة العربية والقومية العربية اليوم كائن يحيا وينمو وتثبت خطاه» (الآداب، 12، 1957). وفي 1957، زار مصر، فأعجب بابتعادها عن التمييز الديني، وبتمسكها بصداقة الدول الاشتراكية من دون «الانجراف في تيار الشيوعية». عند هذه النقطة صار يجاهر «بأننا، كعرب، لا نريد أن نكون مرتعاً للقوة الشيوعية ترتعُ فيه، ولكننا في الآن نفسه نأبى أن نكون مرتعاً ترتع فيه دول الاستعمار الغربي» (الآداب، 2، 1957). في الختام، فإنّ رئيف خوري كاتب ومناضل وطني منفتح، وقومي عربي متحرّر، واشتراكي حر ومستقل. لم يترك باباً لخدمة شعبه وأمته إلا طرقه بثقة وإيمان وحب نادر.

* مقتطفات من كلمة رئيس تحرير مجلة «الآداب» في مئوية رئيف خوري ـ النصّ كاملاً على الموقع